فيصل مبرك /المركز الجامعي –بريكة

وقوف صالح رايس في وجه النزعة التوسعية لمحمد الشيخ السعدي 1539- 1557م

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى الكشف عن جانب من جوانب العلاقات السياسية بين الجارتين الجزائر والمغرب الأقصى في العصر الحديث وبالضبط منتصف القرن 16، وفق مقاربة تاريخية جديدة وهي الأخذ بعين الاعتبار الجانب السيوسيوثقافي للمغرب الأقصى في السنوات الأولى لقيام دولة الأشراف السعديين، فالدولة السعدية قامت من أجل تلبية تطلعات المجتمع الذي يعاني من الاضطهاد المسيحي والنزاعات الداخلية، لذا أخذت هذه الدولة على كاهلها تحمل أعباء تحرير البلاد من الغزو الخارجي كأولوية تضمن بها شرعية الخروج عن الوطاسيين، غير أن المولى محمد الشيخ المهدي السعدي؛ ونظرا لتكوينه العسكري وخبرته في القتال مد يده إلى أبعد من ذلك، فقد أصبح يهدد مصالح الأتراك في الجزائر فكانت المواجهة بين الطرفين شرسة؛ كادت أن تقضي على دولة السعديين في مهمدها، لذا فمن المهم أن نأخذ بعين الاعتبار النزعة التوسعية لمحمد الشيخ المهدي كمقاربة أخرى لأحداث تاريخية حاسمة في تاريخ كل من الجزائر والمغرب.

كلمات مفتاحية: المغرب الأقصى، الجزائر، الدولة السعدية، صالح رايس، محمد الشيخ المهدي

Abstract:

This article aims to study the political relations between Algeria and Morocco in the middle of the 16th century, according to a new historical approach, namely, taking into account the socio-cultural aspects of Morocco in the early years of the Saadian state. The Saadian state was established in order to meet the aspirations of the society suffering from Christian persecution and internal conflicts. The country has borne the burden of liberating the country from external invasion as a priority to ensure its success. the confrontation between the two sides was fierce; it almost eliminated the Saadian state. It is important to take into account the expansionism of Muhammad al-Sheikh al-Mahdi as another approach to understanding Historic events in the history of Algeria and Morocco.

مقدمة:

أولى الكثير من الدارسين الأهمية البالغة لدراسة العلاقة بين المغرب الأقصى والدولة العثمانية في العصر الحديث، وتزداد هذه الأهمّية بالنظر إلى التّقارب المذهبي والدّيني الّذي ميزّ الطّرفين، فالمغرب والأتراك العثمانيين ينتميان إلى نفس المنظومة الدينية والمذهبية وهي إسلامية سنية، وهو الأمر الذي يعطي لموضوع العلاقات المغربية العثمانية تميّزا عن نوعية العلاقات التي جمعته مع الدّول الأوربية، كما يسمح لنا بمعرفة الدّور الّذي لعبه السعديون في سبيل الحفاظ على استقلال بلادهم، وفي الوقت الذي نتكلم فيه عن استقلالية المغرب الأقصى عن الدولة العثمانية، لا يمكننا الحديث بالمقابل عن أطماع للشرفاء السعديين ومن بعدهم العلويين في التوسع على حساب الأراضي والأقاليم المتاخمة لهم بالمغرب الأوسط، فعلى الرغم من أن الشريف السعدي كان قد نظم حملات وصلت إلى حد تلمسان[1]، الأمر الذي أدى بالأتراك العثمانيين إلى نهج خطاب المهادنة (عزل باشا الجزائر)، فإن ذلك لا يعني تخوف الطرف العثماني من توسع السعديين على حساب الإيالة الجزائرية، فالشواهد التاريخية تشير إلى أن التخوف حاصل من الطرفين، فالمولى

المنصور مثلا الذي كان عهده أزهى وأقوى ما عرفته الدولة السعدية قد أدار ظهره إلى الإسبان والبرتغاليين الذين كانوا يسيطرون على بعض المرافئ الهامة المغربية على الساحل، في عز أيام الدولة السعدية، ففي الوقت الذي كانت الدول الأوروبية تحتكر التجارة البحرية وتحاول السيطرة على المرافئ البحرية الهامة، غض الطرف عن مزاحمتهم، وذلك لأنه مع النهضة الأوربية انتهى المضمون الاقتصادي والاجتماعي والسياسي التقليدي للدول المرتبطة باليابس، إلى دول ذات ارتباط وثيق بالبحر، ولأن موازين القوة التجارية تغيرت وأصبحت الطرق البحرية أنشط تجاريا من الطرق البرية التقليدية[2]؛ فإن مدينة تلمسان بقيت خارج اهتمام الأوروبيين الذين تعمدوا عدم الغوص في العمق مكتفين بالمدن المطلة على البحر والمرافئ المهمة، كوهران وتطوان وسبتة والعرائش وغيرها، ولكنها بالمقابل – أقصد تلمسان– بقيت ذات أهمية بالغة لدى كل من أتراك الجزائر والسعديين.

ظروف تمهيد الحكم للدولة السعدية:

تصفت جل المصادر التاريخية الوضع السياسي الذي كان عليه المغرب الأقصى عند مطلع القرن السّادس عشر ميلادي بالتفكك والضعف، لذا فقد عرفت البلاد تنافسا قويا من قبل الدول الأوروبية سيما إسبانيا والبرتغال إلى جانب طموح الدولة العثمانية من أجل إلحاق المغرب بحظيرة الدول التي كانت قد ضمتها سابقا (الجزائر، تونس)، كذلك فقد عرف المغرب تدهورا في جميع المجالات جعلت البلاد تنتقل من سيء إلى أسوأ.

فمن الناحية السياسية برزت حالة التفكك والانقسام نتيجة ضعف الوطاسيين الذين كانوا يحكمون المغرب في الربع الأخير من القرن 9هـ/ 15م، وعجزهم عن بسط سلطتهم وسيطرتهم على كامل البلاد وتوفير الأمن والاستقرار[3] مما أدى إلى انتشار الفوضى والفتن والتجزؤ إلى وحدات سياسية تحت زعامات قبلية أو دينية أو مجالس محلية مستقلة تماما عن فاس أو تتبعها إسميا فقط[4].

فظهرت في الشمال والجنوب الشرقي إمارات بني راشد في شفشاون كمركز للمقاومة وآل المنظري في تطوان وآل عبد الحميد في القصر الكبير وآل رحو في دبدو وكلها كانت تخضع للوطاسيين إسميا فقط، وفي الوسط والوسط الغربي ظهرت إمارة ابن حدو وأخيه ابن فارس في الجبل الأخضر وإمارة آل فرحون في آسفي ونفوذ رؤساء القبائل في سهول دكالة وتادلا وكلها غير خاضعة للحكم الوطاسي[5].

غير أن هذا الوضع قد تغير تدريجيا منذ أن بويع القائم بأمر الله السعدي أميرا رسميا للجهاد سنة 1509 [6]، بعد تزكيته من طرف محمد بن مبارك الأقاوي، و بذلك يكون دور هذا الأخير جليا في بداية الجهاد السعدي وتأسيس ما سيعرف في التاريخ بدولة الأشراف السعديين، فقد كانت فكرة توحيد البلاد وجمع كلمة المسلمين واجبا وطنيا ودينيا في ظل تلك الظروف، فبدأت هذه الفكرة بتوحيد مناطق الجنوب الرئيسية أي درعة و باني ثم سوس، فكانت منطلقا لتحقيق وحدة البلاد ككل، وبالتحكم في الفوضى التي عمت الجنوب؛ يسهل توحيد باقي أطراف المغرب، كضرورة لتحقيق مشروع الدولة، فإذا كانت تيدسي نموذجا للجهاد والدور العسكري، فإن أقا كانت رمزا للسلطة الروحية والصلح الاجتماعي، فإنه يمكن اعتبار تكمدارت قاعدة الزعامة السياسية[7].

مرحلة التأسيس (المشيخة):

ما إن استتبّ أمر الأمير أبي عبد الله محمد القائم بأمر الله، واجتمعت كلمة القبائل السّوسية عليه، قام بمهاجمة البرتغال عند أكادير، فالتفّ حوله جموع حافلة من المسلمين[8]، وصمدوا معه في الحرب، فأتاح الله الأمير محمد القائم ومن معه الفتح والنّصر، وأعاد توحيد الكلمة، فلما رأى المسلمون ذلك تيمّنوا بطلعته وتفاءلوا له، وزادهم ذلك محبّة وتعظيما في مكانته[9].

كانت تدسي انطلاقته الأولى حيث تمّت البيعة لأكبر أولاده أبو العبّاس أحمد الأعرج، فاتجه محمد القائم مع ولي عهده إلى بلاد حاحة[10] بطلب من أشياخه، وترك ولده الأصغر أبا عبد الله محمد المهدي بالسّوس يحارب العدو، وقد بقي أبو عبد الله محمد القائم في بلاد حاحة حتى توفي سنة 923 هـ/1517م، وفي هذه السّنة استولى التّرك على الجزائر ومدن المغرب الأوسط[11]، وكان على أحمد الأعرج أن يحمل راية الجهاد خلفا لأبيه القائم بأمر الله[12]، ففتح الولد حصن فونتي بحاحا، بعدما بقي البرتغال به اثنين وسبعين سنة، كما قضى على أوكار البرتغال في تالمست وأسفي[13] وغيرها بين 927- 928هـ/ 1521- 1522م قبل أن يرحل إلى مرّاكش[14].

وهنا يمكن القول أنّ كل من النّسب الشّريف، والتنظيم الديني الصوفي قد لعبا دورا كبيرا في بروز الأسرة السعدية على مسرح الأحداث بالمغرب الأقصى، وكان الجهاد أكبر مسوغ لشرعية قيام الدولة، فتزعّم أهل السّوس والقبائل المتضرّرة من الغزو البرتغالي، وهنا رزت الإمارة، كنواة لدولة الأشراف السّعديين، وخاصة بعدما بويع ابنه أحمد الأعرج ملكا على السّوس.

توفي أبو عبد الله القائم 1517م بعد مبايعة ولده الأكبر أبو العبّاس أحمد الأعرج ، فالتفّت حوله القبائل المغربية، وبايعته خليفة لأبيه وإماما للمجاهدين في بلاد السّوس[15]، ولما استقامت له الأمور، بدأ يمارس نشاطه في محاربة البرتغاليين وجهادهم، وشن الغارات على العدو البرتغالي، وضيّق المنافذ على القبائل السّوسية المتعاونة مع البرتغاليين، فاستطاع أن يوسّع مناطق نفوذه في البلاد[16]، فذاع صيته وملك جميع البلاد السّوسية، وهرع النّاس إليه وقصدوه من كل جهة ووفدوا عليه، حتّى أنّ أمراء هنتاتة قد كاتبوه ودخلوا تحت طاعته[17].

وفي المقابل تولّى الحاكم الوطّاسي محمد البرتغالي الحكم (1504- 1525م)، وحمل لواء الجهاد ضدّ قوات الاحتلال البرتغالي، فقد ظهر وكأنّ البلاد مقبلة على عهد جديد، الأمر الّذي أكسب محمد البرتغالي سمعة بين أوساط العامّة، ممّا دفع حكام الإمارات شبه المستقلّة عن فاس للتّعاون معه، ولبّوا دعوته لقتال المحتلين، فظهر لدى العامّة بمظهر المدافع عن البلاد شمالها وجنوبها ضدّ الخطر المسيحي[18]، ولكنه لم يكن إلا مراقبا ومشرفا على نجاحات مقدمي الجهاد.

وقد أخذت العلاقات بين الوطّاسيين والأشراف السّعديين في التّوتر، خاصّة بعد أن سيطر السّلطان السّعدي أحمد الأعرج على كل السّوس، ورغم قلة أنصار الأعرج مقارنة بالعدو، فإنّ الأخوين قد نجحا في طرد البرتغاليين من الجنوب[19]، فبعد أن وقع محمد الوطّاسي هدنة مع البرتغاليين لمدة ثلاثة أشهر، سرعان ما اغتنم المولى أحمد الأعرج الفرصة، وأنزل ضربة قوية بالقوّات الإسبانية سنة 1524م، في حصن سنتاكروز عند وادي نون[20] ممّا زادت شهرته في بلاد السّوس[21].

ومجمل القول أنّ عهد أحمد الأعرج يعد مرحلة بسط طريق الدولة السّعدية الناشئة، حيث اتّصفت هذه المرحلة بظاهرتين هما: الرّغبة في القيام بأعباء الجهاد، والقتال لتحرير سواحل بلاد السّوس من الغزو المسيحي، وكذا الطموح الزائد في السيطرة وبسط وتوسيع نفوذ الحركة إلى كافة البلاد المغربية إضافة إلى تلمسان.

وما يجب الإشارة إليه هنا؛ هو الدّور الّذي كان يلعبه أخوه أبو عبد الله محمد الشّيخ، الّذي كان أصغر منه سنّا، وتحت إمرته، وكان السّلطان أبو العبّاس يعتبره يده اليمنى فقد كان يستشيره، ويستفتيه في أمره ويفاوضه في مهامه، ويستعين بنجدته في المعارك[22]، فقد كان الشّيخ ثاقب الذّهن نافذ البصيرة، مصيب الرّأي، شهما وكانت كلمتهما واحدة –حسب تعبير أحمد الناصري–[23].

مرحلة التوسع (السلطنة)، عهد أبي عبد الله محمد الشيخ (1539– 1556م)

بعد أن انتزع ملك السّلطان أبي العبّاس أحمد الأعرج، حلّ أبو عبد الله محمد الشّيخ محلّه[24]، فمن غير المعقول أن يحكم المغرب أميران ولو كانا أخوين، فالأعرج كان الأمير بمراكش بينما كان محمد الشيخ المهدي مرابطا على الثغور، وهنا بدأت تظهر النزعة القتالية والطموح الكبير لمحمد الشيخ الذي ثار على أخيه وانتصر عليه وبويع في مرّاكش سنة 1539[25]، وبهذا دخلت الدولة السعدية مرحلة السلطنة، فقد خلع محمد الشيخ على نفسه ألقاب سلطانية مثل "المهدي" و "أمغار" أو "أسغار" ومعناه بلغة البربر الشّيخ، ويذكر أيضا أن هذه الألقاب تعود لتفوقه العلمي، حتّى أنّه كان يخالف القضاة في الأحكام، ويفتي لهم في الأمور فيجدون الصّواب معه[26]، حيث قال عنه **السّملالي** في كتابه **الإعلام**...: «حدّثني شيخنا أبو راشد أنّه ممتع المجالسة والمذاكرة وحسن السّيرة والمخابرة نقيّ الشّيبة عظيم الهيبة»[27].

بعد مبايعة أبي عبد الله محمد الشّيخ المهدي بمرّاكش سنة 951هـ-1544م[28]، اقتضت سياسته أن يتّخذها عاصمة للدّولة السّعدية، حتى يكون قريبا من أنصاره أهل السّوس والّذي على عاتقهم أجلس على كرسيّ العرش مكان أخيه[29].

في مقابل ذلك عرف شمال المغرب فتن وانقسامات عجز الوطاسيون على احتوائها، حتى انحصرت رقعة دولتهم في فاس وما حولها فقط، وقد استمرّ محمد الشّيخ ينادي بالجهاد لتحرير الوطن، وإنقاذ البلاد من الفوضى الدّاخلية، والعودة بالناس إلى مبادئ الدين الصحيح، حتى شاع لقبه "المهدي" ولا ندر لعل الناس تداولوا خبره على أنه صاحب الزمان[30]، ولا سيما بعد أن احرز انتصارات عظيمة على البرتغاليين وتحريره لأغادير، وانتصاره على أخيه الأعرج، وكذا تحرير مدينة أصيلا والقصر الصّغير بين سنتي 1549-1550م، ولم يبق في يد البرتغاليين سوى طنجة وسبتة ومزغان[31].

التصادم العثماني السعدي وإشكالية الحدود:

في الوقت الذي كان فيه المهدي يحقق انتصارات داخلية كبيرة؛ كانت حركة التّوسع العثماني الرامية إلى جمع شتات المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها في أوجها، حتى وصلوا إلى تلمسان غربا، ولكن بالمقابل؛ وفي سنة 1549م حاصر الشيخ السعدي فاس لبضعة أشهر فسقطت فاس في هذه السنة وانهزم الجيش الوطاسي الذي يساعده بعض الأتراك، وسلّم أحمد الوطّاسي نفسه، أمّا أبو حسّون فقد فر إلى الشّمال[32]، وبهذا يكون قد وضع حدا لحكم الأسرة الوطّاسية باستيلائه على فاس، وقد قام بطرد الوطاسيين ومن حلفائهم من الجنود الأتراك والمسيحيين[33]، ويكون الشيخ بذلك قد ضايق الأتراك لأول مرة.

وفي المقابل؛ كان هناك الكثير من العائلات الكبيرة من أهالي تلمسان لهم أقارب في فاس، ولذلك فقد شغل التّلمسانيون مناصب كبيرة في فاس، وكثر أنصار المهدي ومؤيدوه في تلمسان والمناطق المجاورة لها[34]، بعد أن دانت جل له حواضر المغرب الأقصى، وهو ما أشعره بعظمة كبيرة وثقة مبالغ فيها فتطلع نحو بلاد المشرق كلها وليس تلمسان فقط، فقد كان يردد: «لَابُدَّ لِي أَنْ أَذْهَبَ إِلَى مِصْرَ وَأُخْرِجَ مِنْهَا الْأَتْرَاكَ»[35]، ومجمل القول أن محمد المهدي كان رجلا مندفعا شجاعا لا يركن للراحة، فقد كان يحارب على جبهات داخلية عديدة بدءا بخروجه على أخيه أحمد الأعرج؛ وصراعه الطويل مع بقايا الوطاسيين وأيضا استكمال حروبه ضد الغزاة الإيبيريين، وأخيرا يفتح بابا عريضا على تلمسان والشرق كله، أي كان له استعداد لمواجهة الدولة العثمانية بثقلها البري والبحري.

يرى أحمد العماري أن الخلاف بين الشرفاء والأتراك لم يكن في عمقه يتمحور حول مشكلة الحدود، وإنما كان حول مسألتين أساسيتين، أولا: "الخلافة" التي كان السعديون والعلويين يعتبرون أنفسهم أحق بها من الأتراك وينظرون إلى هؤلاء كمغتصبين لها، ثانيا:

وحدة المغرب العربي التي كانت تبدو ضرورة تدعمها الحجة التاريخية والمعطيات المشتركة [36]، غير أن هذا الرأي يبدو مبالغا في تصور العلاقات السياسية بين الطرفين، فالدولة السعدية عرفت أزهى أيامها وأعز قوتها في عهد المنصور الذهبي، هذا الأخير الذي وإن كان يلح على نيل اعتراف الدولة العثمانية به كقوة إسلامية تحمي راية الإسلام في منطقة الثغور، إلا أنه لم يحاول ولم يفكر في القضاء على العثمانيين ليخلو له الجو لادعاء لقب الخليفة، ولم يكن يفكر أيضا في ضم المغرب العربي وإعادة إحياء الدولة الموحدة الجامعة لأقطار المغرب العربي، أما بعد وفاة المنصور فالواقع السياسي الذي كان قائما حينها لا يَدَعُ أي شك في أن الرغبة في الملك الشخصي والقطري قد طغت على الساحة السياسية المغربية وليس رغبة توحيد كلمة المسلمين، وذلك نتيجة تفكك عصبية السعديين وافتراق كلمتهم من جهة، وتنامي العصبيات القبلية في باقي أقاليم المغرب الأقصى، لهذا فإن المغرب الأقصى كان عاجزا على مواجهة الدولة العثمانية فضلا عن منافستها في مناطق نفوذها.

وقد عبرت بعض الكتابات التاريخية عن قضية تحديد الحدود بن البلدين المغرب والجزائر بأنها فكرة دخيلة على المنطقة المغاربية، وأن الفهم الذي كان سائدا خلال هذه الفترة هو أن دار الإسلام مجال جغرافي وفضاء حضاري يحق للمسلم أن يستوطن في مختلف جهاته، وأن الحدود لا يمكن أن تكون إلا بين دار الإسلام ودار الحرب[37]، غير أن هذا وإن كان يُقْبَل على الصعيد الشعبي فإنه لا يصح على الصعيد الرسمي فالحدود بين المغرب والجزائر عهد السعديين كانت محددة ومرسومة باتفاق الطرفين، حتى تغير الوضع بعد نهاية الدولة السعدية في مستهل النصف الثاني من القرن 17م، فلقد كان المغرب دائما يسعى إلى توسيع نفوذه شرقا، وهذا ما تجلى في كثرة الحملات العسكرية خصوصا في بدايات الحكم العلوي، لذلك كان الأتراك هم السباقين لطرح مسألة الحدود بين الطرفين، متجاوزين بذلك الفكرة السائدة عن رفض الإسلام تقسيم تراب البلدان

الإسلامية، وقد استطاعت البعثة التركية إقناع الشريف محمد العلوي (1636-1664م) بفكرة رسم الحدود بين المغرب والولاية التركية، وانتزعوا منه أول تعهد مكتوب بذلك، لكن الملوك العلويين ظلوا مقتنعين بإمكانية ضم مناطق أخرى على الحدود الشرقية، وهو ما تجلى في محاولات التوغل شرقا متجاوزين كل الاتفاقيات خصوصا في عهد المولى الرشيد (1666-1672م) والمولى إسماعيل (1672-1727م)، في حين لَوَّحَ الأتراك الجزائريون بورقة الحدود، واعتمدوها كورقة رابحة لغلق الملف العالق وتأمين الحدود الغربية للجزائر[38]، ويعتبر "وادي التافنة" الحاجز الفاصل الطبيعي والحد السياسي الرسمي بين الطرفين[39].

التّدخل السّعدي في تلمسان 956هـ- 958هـ/ 1549-1551م

تلمسان قاعدة المغرب الأوسط كما يصفها ابن خلدون، مدينة لها وزنها الحضاري، كانت محطّة تجارية بين أوروبا وبلاد السّودان، ومركز إشعاع ثقافي وديني في المغرب العربي ككل، ظلت ولوقت طويل محل صراع بين مختلف القوى السّياسية خلال العصرين الوسيط والحديث[40]، ونظر لها المولى محمد الشيخ السعدي على أنها قاعدة حملاته التي يوجهها نحو الشرق حتى مصر !!

كان أبو عبد الله محمد الشيخ قد بسط نفوذ ملكه على ربوع المغرب، فطمحت نفسه إلى تملك تلمسان[41]، فقد كان يعزّ عليه استيلاء الترك عليها لأنّه اعتبرهم غرباء دخلاء على البلاد كلها، ولا سيما عندما انضمّ العديد من أعدائه إلى العثمانيين، فرأى أن يقاتلهم قبل أن يقاتلوه[42]، وقد وصل إلى المهدي وفد من أهالي تلمسان من طرف الأمير الزّياني يطلب منه مساعدته ضدّ الأتراك، وهذا ما كان ينتظره المهدي لتكون حجّة له من أجل شن الهجوم على المدينة[43].

كل تلك الظّروف ساعدت محمد الشّيخ على أن يوجه أنظاره نحو تلمسان، فاستجاب لطلب النّجدة الّتي تقدم بها الأمير الزّياني اللاجئ بالمغرب أحمد بن عبد الله من أجل مساعدته لاسترجاع حكمه في تلمسان[44]، وقد مهد محمد الشّيخ لتدخّله على المدينة بحملة وجّهها في سنة 956هـ/ 1549م إلى شرق المغرب، الّذي أخذ النفوذ العثماني يمتد إليه، فاستولى على كرسيف[45] ووجدة[46]، حيث اضطرّ الحاكم العثماني لهذه المدينة الأخيرة إلى الفرار منها[47]، وكذلك انضمام المنصور بن أبي غانم قائد بني راشد إليه، وقد كان له أنصار كثيرون في تلمسان، وهذا ما اعتبر محمد الشيخ داعما قويا[48].

وعلى الفور كلّف المهدي ولداه عبد الله ومحمد الحرّان بالتوجه إلى تلمسان، وجهّزهما بجيش مؤلف من ثلاثين ألف جندي، انطلقت القوّات المغربية من وجدة نحو تلمسان، وقد حاصرها تسعة أشهر، وانتهت باستيلاء السّعديين على تلمسان، إلا أن محمد الحرّان بن محمد الشّيخ قتل أثناء الحصار، بعد أن تمكن من إحكام سيطرته على مستغانم[49]، فدخل السّعديون تلمسان سنة 1551م، ونفى عنها الأتراك، وامتد حكمه حتى وادي الشّلف[50].

وبعد أن سقطت تلمسان بأيدي المهدي، أدرك حسن بن خير الدّين حقيقة الاستعدادات الّتي قام بها الأشراف السّعديون من أجل الاستيلاء عليها، وبالطّبع لم يبق أتراك الجزائر مكتوفي الأيدي أمام احتلال السّعديين للمدينة التي كانت تحت سيادتهم، خاصة وأنّهم فقدوا الكثير من أجل الاستيلاء عليها وطرد الأمراء الزّيانيين والإسبان منها، وكل ذلك إدراكا منهم لمدى أهمية هذه المدينة في توطيد سلطتهم في الجزائر، وتوسيع نفوذهم غربا[51].

أعد حسن بن خير الدّين جيشا يتكون من خمسة آلاف جندي مسلّح بالبنادق، وألّف خيّالة، وثمانية آلاف مقاتل من متطوعي القبائل المختلفة[52]، وجرت معركة كبيرة بالقرب من تلمسان انهزم فيها عبد القادر السّعدي بن محمد الشيخ، وأسرع إلى الاحتماء بأسوار المدينة، إلا أنّ المدد الكبيرة الّذي أرسله والده عند بدء الحملة اضطر حسن بن خير الدّين إلى التّراجع عن تلمسان نحو الجزائر[53]، لعل هذا التراجع كان مقصودا، فبعد أن أحس حسن بن خير الدين أن الأمر ليس في صالحه، ذلك أن قائد قلعة بني راشد منصور بن بوغانم قد انضم إلى السعديين، كما أن الإسبان المستقرون في وهران كانوا على استعداد تام للتحالف مع عبد الله بن محمد الشيخ، وتجدر لإشارة إلى أن الجيش السعدي لم يكن يريد تلمسان فحسب؛ بل كانوا يريدون استباحة وتخريب الجزائر العاصمة باتفاق مع الإسبان وكذلك الشيخ بوطريق الثائر على العثمانيين[54]، لذا كان تراجع حسن بن خير الدين في صالح الأتراك.

وبعدها أعدّ حسن حملة أخرى أسند قيادتها للقائد الكاطاني، وأخذ في التّحرك نحو تلمسان، وانضمت إليه القبائل الّتي أضرّ بها الهجوم السّعدي مثل قبائل بني عامر، إلاّ أنّ تحرك الحملة كان بطيئا ممّا سمح لمحمد الشّيخ بإرسال إمدادات أخرى إلى تلمسان[55]، لم تصل الحملة إلى تلمسان بسبب تخوفها من أن يعترضها الإسبان.

في سنة 958هـ- 1544م تواجه المعسكر التركي بالمعسكر السعدي في معركة فاصلة، قرب تلمسان، وانتهت هذه المعركة بهزيمة ساحقة للسّعديين حيث قتل فيها ثلاثة أرباع الجيش المغربي، والّذي كان يقدر بنحو سبعة عشر ألف، وكان من بين القتلى عبد القادر بن محمد الشّيخ وجرح أخوه عبد الرحمن الذي تمكن من العودة إلى المغرب، ولاحق العثمانيون السّعديين حتى نهر ملوية[56] ودبدو[57]، ثم عادوا إلى تلمسان ودخلوها دون أي مقاومة، وأنزلوا العقاب الشديد بأنصار السّعديين فيها، حيث صودرت أموالهم وفرضت عليهم غرامات ثقيلة[58].

ومن جرّاء تلك الخسائر الفادحة لم يتمكن الحاكم محمد الشّيخ من إعادة الكرّة حتى سنة 1557م، وذلك في أعتاب آخر السّفارات العثمانية الجزائرية الموجهة إليه، قام المهدي بشن حملة على مدينة تلمسان وهذه المرة الثّانية لمحاولة احتلال المدينة، منتظرا فرصة اضطراب أمور الأتراك العثمانيين في مدينة الجزائر، ورغم ذلك عجزت القوات السّعدية للمرة الثّانية على التّغلب عن الأتراك، لأنها كانت تفتقر للمدفعية، وطلبوا المساعدة من الإسبان إلا أنهم امتنعوا عن ذلك(59).

وفي هذه الأثناء عين حسن قورصو للمرّة الثّانية مؤقتا على رأس الحكومة الجزائرية العثمانية، وكان من مهتما بالاستيلاء على تلمسان، فأعدّ حملة كبيرة من أتراك الجزائر، مما استوجب على الأشراف السّعديين الانسحاب في نفس السّنة، وخلص أمرها للتّرك، ولم يعاود الشّيخ غزوها بعد ذلك(60).

و تشير المراجع إلى هجوم سعدي ثالث على تلمسان وذلك في عهد عبد الله الغالب بن محمد الشّيخ، هذا الأخير الّذي لم يغفر لأتراك الجزائر تدبير اغتيال والده، فشنّ هجوما آخر على تلمسان سنة 958هـ/1560م، مستغلا ظروف خصمه حسن قورصو الدّاخلية المتمثلة في انشغاله بقمع تمرد بني عبّاس الثّائرين على الحكم العثماني في الجزائر، ومواجهة الحملة الإسبانية وحلفائها على القواعد العثمانية بدءا من طرابلس، فحرك قواته نحو تلمسان، إلا أن السّعديين انسحبوا سريعا بسبب تفرغ حسن قورصو للدفاع عنها بعد تغلبه على الحملة الإسبانية(61).

مما سبق يتضح أن محمد الشّيخ لم يقبل بالوجود التركي ليس فقط في تلمسان؛ وإنما في كل شمال إفريقيا بما فيها مصر، مستعينا في ذلك بكل من يمكنه المساعدة، كالإسبان ورجال الطرق الصوفية والقبائل المتمردة كبني عباس وبني عامر، ولكنه بذلك سيتحمل

أعباء فشله في مشروعه، لأن العثمانيين لن يكتفوا بصده فقط، ولكنهم سوف يتوغلون إلى العمق المغربي ليناصروا عدوه الأول أبا حسون الوطاسي.

رد صالح رايس على المهدي واحتلال فاس 962هـ- 1554م:

بعد الصراع الذي حدث بين محمد الشيخ وأبي حسون الوطاسي حول السلطة والعرش، وتمكن محمد الشّيخ من إخراج هذا الأخير من دار ملكه بفاس وامتلاكها، بذل أبو حسّون جهوده لاستعادة ملكه فبعد اتصاله بنائب ملك اسبانيا ثم شارلكان -دون جدوى-، استنجد بالبرتغال فزوده ملك البرتغال جان الثالث بخمسة قطع بحرية، لكنه سرعان ما وقع في قبضة الجيش التّركي في عرض البحر المتوسّط[62]، إثر اصطدامه بقطع الأسطول العثماني الّذي أخذه أسيرا مع ما كان يصحبه من عتاد ورجال إلى الجزائر، وهنا بدأ احتكاكه بصالح رايس بيلرباي الجزائر[63].

فتح التّدخل السّعدي في تلمسان والغرب الجزائري باب النّزاع المسلّح المباشر بين السّعديين والأتراك العثمانيين في الجزائر[64]، فبالرّغم من الرسالة التي بعثها السّلطان سليمان العثماني لمراكش التي توصي بحسن الجوار والتعاون مع الباشا الجديد الذي نصبه على الجزائر مكان حسن بن خير الدين، وهو صالح رايس[65]، إلا أن هذا الأخير دخل في مفاوضات سرية مع أبي حسّون الوطّاسي منذ وصوله إلى الجزائر سنة 1552م[66]، قال الإفراني في هذا الصّدد: «ولم يزل عند ترك الجزائر يفتل لهم في الغارب والسّنام ويحسن لهم بلاد المغرب ويعظّمها في أعينهم ويقول لهم إنّ ملكها اليوم استلبني ملكي وملك آبائي وغلبني تراث أجدادي فلو ذهبتم معي إلى قتاله عسى الله أن يتيح بنا النّصر عليه ويرزقنا الظّفر به والغلبة عليه ولا تعدمون أنتم مع ذلك منفعة من ملئ أيديكم غنائم وذخائر...» [67].

اعتبر صالح باريس أبا حسّون الوطّاسي وسيلة يمكن استخدامها لتحقيق أطماعه ومآربه في توسيع حدود ملكه باتجاه فاس، أو بالأحرى كسر شوكة محمد الشيخ المهدي، لذلك قربه إليه وسمع لشكاويه ونشأت علاقات ودية بينهما، فقرر صالح رايس غزو فاس، وقام لذلك الغرض بتنظيم حملة تضم جميع القبائل بما فيها المتمردة لإبعاد شرها ومنحها فرصة في الحصول على غنائم، فجمع جيشا من الخيّالة والفرسان، من ستة آلاف جندي مسلح بالبنادق وألف من الخيالة وعدد من المدافع الثقيلة والخفيفة، واثنين وعشرين سفينة لمساعدته من جهة البحر(68).

وباستعداد التّرك لمساعدة الحاكم الوطّاسي، تكون قد تظهر النوايا الحقيقية للعثمانيين تجاه المغرب، وأن رغبة السلطان في تحقيق السّلام وحسن الجوار لم تكن إلا مناورة وصفها الدكتور عبد الكريم فيلالي في موسوعته التاريخية بقوله: "كيد الأتراك مع أبي عبد الله الشيخ"(69)، بل إن طموح العثمانيين في ضم المغرب بقي قائما، ورأوا في طلب أبي حسّون فرصة مواتية لتحقيق ذلك، وقد اشترط والي الجزائر صالح رايس على هذا الأخير أن يدعوا للعثمانيين على منبر جامع القرويين في فاس، وفي سائر مساجد المغرب تعبيرا عن الولاء والطّاعة للسّلطان العثماني، إضافة إلى نقش رسوم السّلطان العثماني على العملة المغربية لقاء تقديم العون له لاقتحام المغرب واسترجاع عرشه في فاس(70).

فخرج جيش صالح رايس من الجزائر سنة 961هـ- 1553م(71)، ولما سمعت اسبانيا نبأ المساعدة التّركية لأبي حسّون الوطّاسي حذرت الملك السّعدي محمد الشّيخ من مغبّة التّدخل العثماني، لأن وصولهم إلى بادس(72) يعني تهديد المصالح الإسبانية(73).

بعد سماع المهدي الخبر دعا إلى عقد مجلس عام مع أعيان البلد لدراسة الوضع وباشر بجمع أكبر قوة ممكنة، فكان جيش المهدي يتألّف من ثلاثين ألف خيّالة ومن اثنى عشر جندي مشاة وعشرين مدفعا(74)، والتقى الجمعان فحدثت معارك طاحنة بين قوات محمد

الشّيخ والقوات العثمانية قرب حجر بادس ووصل جيش الجزائر إلى نهر سبو[75] الّذي يبعد عن مدينة فاس بحوالي ست كيلومترات، وألحقت الهزيمة بالقوات السّعدية[76]، فواصل أتراك الجزائر زحفهم نحو الدّاخل واستطاعوا دخول مدينة تازة[77] بعد معارك متواصلة مع جيش محمد الشّيخ، فأجبر السّعديين على ترك فاس، فدخلها العثمانيون ومعهم أبو حسّون الوطّاسي في أوائل عام 1554م[78].

وقد قدم أنصار أبي حسّون الوطّاسي مساعدات من أجل نجاحه في استرجاع عرشه، في المقابل تخلى ستمائة جندي تركي كانوا في خدمة المولى محمد الشّيخ والتحقوا بجيش صالح رايس وأبي حسّون، فاستقبلوا بفرح كبير من طرف السّكان الذين حملوا إليهم هدايا وحلي فاخرة، ومعهم أكابر جنودهم ويسيرون بالموسيقى بينما التجأ محمد المهدي إلى مراكش مذعورا[79].

ويقول الإفراني في هذا الصّدد: «... ولما دخل فاسا فرح به أهلها فرحا شديدا وترجّل هو عن فرسه وصار يعانق النّاس كبيرا وصغيرا، وشريفا ومشروفا وهو يبكي على ما دهمه وأهل بيته من فتن الأشراف السّعديين واستبشر النّاس بقدومه، وتيمّنوا بطلعته»[80]، لكن ترحيب الفاسيين بالفاتحين الجدد لم ينقذهم من سلب القبائل والأتراك لهم[81]، فشرع الأعراب في الجيش التركي ينهبون المدينة حسب الشّروط التي قدموها، فحصلوا على غنائم كبيرة ، وذهب صالح رايس إلى بيت المال الذي تركه محمد الشّيخ، ويقال أنّه وجد ما يزيد على ثلاثة ملايين !! مثقال من عملة الباستولات القديمة، بالإضافة إلى عدد كبير من قطع الذّهب والفضّة والأثاث الفاخر مع سبعمائة خادم ويقال أنّ المهدي قد ترك كل ذلك عمدا حتّى لا يفكر الجيش التركي في ملاحقته، وعلى أمل أن يعود إلى الجزائر بعد أن يكتفي بنهب المدينة[82].

وجد الأتراك ما يشفي غليلهم في المغرب، ومن جهة أخرى عملوا على الإطاحة بأبي حسّون الوطّاسي وإعلان بيعة السّلطان سليمان العثماني[83]، وهكذا تمكن الأتراك من فرض ذكر السّلطان العثماني على منابر فاس، وأخذوا ينتظرون ظهور اسمه على العملة المغربية أيضا[84].

إلاّ أنّ أبا حسّون كان يريد التّخلص من الأتراك وإعلان استقلاله في أقرب فرصة سانحة[85]، وذلك بعد أن ثارت الرعية على سياسة الاستغلال التّركية، خاصة وأن أبا حسون قد رفع عنهم أحكامه، لكن صالح رايس هو الآخر يفكر في ضم فاس إلى أملاك الدولة العثمانية، وقد طلب هذا الأخير من أبي حسون دفع مبلغ قدره أربعة ألف مثقال من الذهب كتعويض لجيش الجزائر، وعلى الفور لجأ الحاكم الوطّاسي إلى استدانة المبلغ من سكان فاس، وبهذا القرض يكون قد ضمن لنفسه البقاء في الحكم[86]، وأعطاه لصالح رايس الذي عاد على الفور إلى ولايته الجزائر[87].

وخلال رجوع صالح رايس إلى الجزائر استمر رجاله في النهب والسلب فثار سكان فاس على بعضهم، واشتبكوا معهم فقتل عشرة من الترك، ولما علم صالح رايس بهذه الفتنة غضب غضبا شديدا وأعلن الهجوم على فاس والانتقام من أهلها، إلا أن أبا حسون خرج مسرعا لعقد صلح مع صالح رايس[88]، فعاد باشا الجزائر أدراجه تاركا أبا حسون في فاس، فجمع أعيان فاس وبادس وبايعوه واعترفوا به حاكما عليهم [89].

لما رجعت القوات التّركية إلى الجزائر، وبقي أبو حسّون يواجه خصمه محمد الشّيخ وحده[90]، وفي هذه الأثناء كان هذا الأخير يقوم باستعدادات كبرى لاسترجاع ما فقده، وعندما وصله خبر مغادرة الأتراك لفاس حشد أكثر من ثلاثين ألف فارس !! وعددا من المشاة[91].

ذكر دييغو دي طوريس في كتابه **تاريخ الشرفاء**؛ أنا أبا حسون قد قتل بطعنة رمح في المعركة وهو يشجع جيشه ويحثه على الصمود في وجه المهدي، وقطع رأسه ورفع على رمح[92]، أما ولداه فقد فرا إلى أصيلا، ثم ركبا سفينة ملتجئين إلى الجزائر لكن السّفينة وقعت بأيدي القراصنة، فقتل الاثنان معا[93]، وبمقتلهما يكون قد تمّ القضاء كليا على الدّولة الوطّاسية سنة 961هـ- 1554م[94] واستعاد محمد الشّيخ عرشه مرة أخرى، وخلص له المغرب كله.

ملاحظات واستنتاجات ختامية:

تجدر الإشارة إلى أن بقايا بني وطاس وأهمهم -أبا حسّون- قد لعبوا دورا هاما في سوء العلاقة بين السّعديين والأتراك، ولكن هذا لا يعني أن صالح رايس لم تكن له أطماع في توسيع حدوده الغربية، أو على الأقل تأمينها، في حين يمكن أن نلاحظ الثقة الزائدة التي كان يراها محمد الشيخ المهدي في نفسه وجيشه، هذه العظمة أدت به إلى خسارة كبيرة في كل من تلمسان وفاس وبادس معا، ونلاحظ أيضا أن مساعدة الأتراك لأبي حسّون بقيادة صالح رايس لم تكن إلاّ نتيجة لرفض محمد الشّيخ السّعدي تبعية السّلطان العثماني سليمان العثماني.

وما يجب الإشارة إليه أنّ النتيجة الّتي حقّقتها الحملة الجزائرية على المغرب كانت سريعة الزّوال، فزال نفوذ الأتراك في المغرب، وعاد السعديون الذين لم يضعفهم الاقتتال مع أبي حسون ليشكلوا خطرا كبيرا من جديد على الحدود الغربية للجزائر، إذ أخفق صالح رايس في استمالة محمد الشّيخ إليه، على الرغم من المحاولات الّتي أبداها بعد دخوله فاس، وآخرها عدم قيامه بنجدة أبي حسّون كما وعده[95]، فبعد استعادة فاس من قبل السّعديين ظلوا ينظرون إلى الدّولة العثمانية وأتراك الجزائر نظرة حقد وحذر، يذكر الدكتور عمار بن خروف أنه وبعد كل هذه الأحداث لا زال مشروع القضاء على الأتراك قائما

لدى المهدي فدارت مفاوضات حول إرسال حملة مشتركة على الجزائر إلا أنها باءت بالفشل[96].

لم يجد العثمانيون حلا لمحمد الشيخ المهدي، فلجؤوا إلى استمالته واحتوائه، فكتب له السلطان العثماني سليمان القانوني كتابا يعرض فيه مساعدته على التحرشات الإسبانية مقابل الدعاء له على المنابر وضرب السكة باسم سلطان الدولة العثمانية، فلقي منه أسوأ رد وأبشع كلام، وكان رد الشيخ هو: «لَا جَوَابَ لَكَ عِنْدِي حَتَّى أَكُونَ بِمِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ، وَحِينَئِذٍ أَكْتُبُ لِسُلْطَانِ الْقَوَارِبِ»[97]، وبهذا تيقن العثمانيون أن لا حل إلا اغتياله من طرف جواسيس، وذلك في نواحي تارودانت ونقل رأسه إلى القسطنطينية فعلق على أسوار المدينة[98] .

الإحالات والهوامش:

(1) أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1955، ج5، ص25.

(2) Voire : F. ÉLIE DE LA PRIMAUDAIE, « Le commerce et la navigation de l'Algérie avant la conquête Française », Revue Algérienne et Coloniale, JUIN 1860.

(3) عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، دراسة تحليلية لأهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية، ط3، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، 2006، ص 16.

(4) عمار بن خروف، العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر هجري السادس عشر ميلادي، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2006، ج1، ص 16.

(5) المرجع نفسه، ج1، ص 46.

(6) محمد الصغير الإفراني، نزهة الحادي بأخبار القرن الحادي، صحح عباراته التاريخية السيد هوداس، مطبعة بردين، أنجي، 1888، ص10.

(7) عبد القادر أولعايش، "الدولة السعدية... كيف نشأت امبراطورية عظيمة من قرية صغيرة؟"، جريدة هيسبريس الإلكترونية، 19/ 06/ 2013.

(8) العباس بن إبراهيم السملالي، الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام، الإعلام بمن حل مراكش وفاس من الأعلام، راجعه عبد الله بن منصور، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، ج5، ص 118.

(9) أحمد الناصري ، مرجع سابق، ج5، ص 13.

10هو الجزء الواقع في أقصى غرب مملكة مراكش، يحده من الغرب والشمال المحيط ومن الجنوب جبال الأطلس الكبير المتاخمة لإقليم السوس، ومن الشرق نهر أسيف المال الذي يفصله عن إقليم مراكش، فيه جبال عظيمة وعرة وشاهقة جدا وصخور مغطاة بالأشجار ينمو فيها الشعير بكثرة، لكن القمح لا ينبت فيها أصلا، أنظر: مارمول كاربخال، إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد زينبر وآخرون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، 1984، ج2، ص05.

(11)الإفراني، مصدر سابق، ص 16.

(12)خير الدين بربروس، مذكرات خير الدين، ترجمة محمد دراج، ط1، شركة الأصالة للنشر، الجزائر، 2012، ص72 وما يليها.

(13)يعتقد البعض أن هذه المدينة إحدى المدن التي شيدها بأمر من مجلس الشيوخ تقع على شاطئ المحيط في طرف إقليم دكالة ولها أسوار متينة عليها سبعة وثمانون برجا، أنظر: مارمول كاربخال، مصدر سابق، ج2، ص 71.

(14)محمد سعيدي الرجراجي، رجراجة وتاريخ المغرب، ط1، منشورات جمعية البحث والتوثيق، الرباط، 2004، ص 36.

(15)الإفراني، مصدر سابق، ص 18.

(16)عبد الفتاح مقلد الغنيمي، موسوعة تاريخ المغرب العربي، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1993، ج6، ص 123.

(17)الإفراني، مصدر سابق، ص 19.

(18)إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1984، ج2، ص 277.

(19)زهية قدورة، تاريخ العرب الحديث، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1985، ص 534.

(20) منطقة مسكونة على شاطئ المحيط ليس بها سوى قرى عامرة بناس فقراء لا ينبت فيها إلى الشعير وقليل من التمر الرديء، يرتدون أهله لباسا سيئا وهو فقراء لأن الأعراب يستغلونهم ويستنزفونهم، أنظر: حسن الوزان، وصف إفريقيا، تحقيق محمد حجي، محمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ج 1، ص 106.

(21)عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، ط3، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، 2006، ص 45.

(22)ابن القاضي، درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، ط1، دار النصر للطباعة، تونس، 1970، ج2، ص 205.

[23]أحمد الناصري، مرجع سابق، ج5، ص 16.

[24]عبد الله كنون، النبوغ المغربي ، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ط2، د.م، د.ت، ج1، ص 235.

[25]عبد الكريم غلاب، قرمرجع سابق، ص 298.

[26]الإفراني، مصدر سابق، ص 22.

[27]السملالي، مرجع سابق، ج5، ص 132.

[28]الإفراني، مصدر سابق، ص 29.

[29]عبد الكريم كريم، مرجع سابق، ص 68.

[30]عبد الفتاح مقلد الغنيمي، مرجع سابق، ج6، ص 190.

[31] مرجع نفسه، ص 129.

[32]إبراهيم حركات ، مرجع سابق، ج2، ص 278.

[33]عبد الفتاح مقلد الغنيمي، مرجع سابق، ج6، 130.

[34]عزيز سامح التر، مرجع سابق، ص 181.

[35]الإفراني، مصدر سابق، ص 42.

[36]محمد الضيف الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة، تحقيق أحمد العماري، دار المأثورات، الرباط أكدال، 1986، ص19.

[37]قدور بوزياني، "مسالة الحدود بين المغرب وأتراك الجزائر"، سلسلة ندوات ومناظرات المغارب في العهد العثماني، عدد41، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1995، ص35.

[38]أحمد العماري، تحقيق كتاب تاريخ الضعيف الرباطي، مرجع سابق، ص19، قدور بوزيان، مرجع سابق، ص35.

[39]قدوري بوزيان، مرجع سابق، ص35.

[40] عمار بن خروف، مرجع سابق، ج1، ص 158.

[41]الإفراني، مصدر سابق، ص 29.

[42]السملالي، مرجع سابق، ج5، ص 140.

[43] عزيز سامح التر، مرجع سابق، ص 178.

[44] عبد الكريم كريم، مرجع السابق، ص 77.

[45] مدينة صغيرة قرب نهر ملوية اتخذها بني مرين مخزنا لحبوبهم، وحصنا لهم عندما كانوا يقيمون في الصحاري، ولهذا فإنها مشيدة على صخرة، سكنها قوم فقراء، لأنها أرض تصلح بها الزراعة، مارمول كاربخال، مصدر سابق، ج2، ص 270.

(46) مدينة قديمة أسسها أهل البلاد في سهل جميل على بعد أربعة عشر فرسخا من البحر في اتجاه الجنوب، وعلى نفس البعد من تلمسان يكثر بها الحبوب والمراعي وهي محاطة بالبساتين والحدائق، قام بتخريبها أحد ملوك فاس من بني مرين اثناء حربه ضد ملك تلمسان، ثم أعيد تعميرها بعد ذلك، مارمول كاربخال، مصدر سابق، ج2، ص 294.

(47) عمار بن خروف، مرجع سابق، ج1، ص 142.

(48) المرجع نفسه، ج1، ص 142.

(49) إبراهيم حركات، مرجع سابق، مج 2، 280.

(50)السملالي، مرجع سابق، ج3، ص 140، عبد الكريم كريم، مرجع سابق، ص 77.

(51) عزيز سامح التر، مرجع سابق، ص 179.

(52) عمار بن خروف، مرجع سابق، ج1، ص 144.

(53) عبد الفتاح مقلد الغنيمي، مرجع سابق، ج6، ص 133.

(54) صالح عباد، الجزائر خلال العهد التركي، دار هومة، الجزائر، 2012، ص70 وما يليها.

(55) محود علي عامر ومحمد خير فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث، «ا المغرب الأقصى –ليبية » ، منشورات جامعة دمشق ، دمشق 2000، ص 40.

(56) ملوية نهر كبير ينبع من الأطلس في ناحية الحوزة على بعد نحو خمسة وعشرون ميلا من مدينة كرسلوين، فيجتاز أولا بعض السهول الوعرة اليابسة ليصل إلى سهل أكثر وعورة بين مفازات وأنكاد وكرط، ويمر في سفح جبل بني يزناس، انظر: الحسن الوزان، مصدر سابق، ج2، ص 250.

(57) دبدو مدينة قديمة أزلية على منحدر جبل شاهق منيع باستحكاماته الطبيعية وسكن المدينة فرع من شعب زناتة وينزل من جدور الجيل عدد كبير من المجاري المائية التي تمر بدبدو، وقد بنيت هذه الأخيرة لتكون معقلا لفرع من قبيلة بني مرين، الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 351.

(58) عمار بن خروف، المرجع السابق، ج1، ص 144.

(59)السملالي، مرجع سابق، ج5، ص 140، عبد الكريم فيلالي، التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير، ط1، شركة ناس للطباعة، القاهرة، 2006، ج3، ص 174.

(60)السملالي، مرجع سابق، ج5، ص 140، عمار بن خروف ، مرجع السابق، ج1، ص 144.

(61)عمار بن خروف، مرجع سابق، ج1، ص 144.

(62) إبراهيم حركات، مرجع سابق، مج2، ص 281.

(63) عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، السعديين ، أكاديمية المملكة المغربية، المملكة المغربية، 1988، ج8، ص 23.

(64) عمار بن خروف، مرجع سابق، ص 145.

(65) عبد الكريم كريم، مرجع سابق، ص 281.

(66) عبد الهادي التازي، مرجع سابق، مج8، ص 23.

(67)الإفراني، نزهة الحادي...، مصدر سابق، ص 30.

(68) عبد الله العروي، مرجع سابق، ج1، ص 463.

(69) انظر: عبد الكريم فيلالي، التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير، مرجع سابق، ج3، ص311 وما يليها.

(70) عبد الهادي التازي، مرجع سابق، مج8، ص 24.

(71) عزيز سامح التر، مرجع سابق، ص 281.

(72) مدينة مبنية على ساحل البحر المتوسط يسميها الإسبانيون "دولاكوميرا" يقول بعض المؤرخون أن الأفارقة من أسسها، وطرف آخر يقول أن القوط من بناها، تقع المدينة بين جبلين شاهقين وفي داخل المدينة سوق يضم العديد من الدكاكين وجامع متوسط الكبر، انظر: الحسن الوزان، مصدر سابق، ج1، ص 325.

(73) عبد الهادي التازي، مرجع سابق، ج8، ص 23.

(74) عبد الكريم كريم، مرجع سابق، ص 79، عزيز سامح التر، مرجع سابق، ص 188.

(75) نهر ينبع من جبل يسمى سليلكو في الحوز بإقليم مملكة فاس، يجري في سهل مارا على بعد نحو ستة أميال من فاس، ثم يقطع سهلا فاصلا بين الهبط وأزغار، مجرى هذا النهر طويل ومياهه غزيرة يعبره الناس بالفلك، أنظر: الحسن الوزان، مصدر سابق، ج2، ص 248.

(76) مؤلف مجهول، تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية، تحقيق، عبد الرحيم بن حادة، ط1، دار تينمل للطباعة والنشر، المغرب، 1994، ص 23.

(77) مدينة كبيرة تعيش في رخاء على أرض خصبة، أسسها الأفارقة على بعد نحو خمسة أميال من طرابلس تبعد عن فاس بنحو 50 ميلا وعن البحر المتوسط بـ 7 أميال، أنظر: الحسن الوزان، مصدر سابق، ج1، ص 354، يحي شامي، موسوعة المدن العربية و الإسلامية، ط1، دار الفكر العربي للطباعة والنشر، بيروت، 1993، ص 212.

(78) أحمد سالم علي، مرجع سابق، ص 50.

(79)دييغودي طوريس، تاريخ الشرفاء، ترجمة ، محمد حجي، محمد الأخضر، المؤسسة الوطنية للتأليف والنشر، المغرب، 1989، ص 205.

(80)الإفراني، مصدر سابق، ص 30.

(81) محمود علي عامر ومحمد خير فارس، مرجع سابق، ص 42، عزيز سامح التر، مرجع سابق، 191.

[82]دييقو دي طوريس، مصدر سابق، ص 205، إحسان حقي، المغرب العربي، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، د ت، ص 111.

[83] عبد الكريم كريم، مرجع سابق، ص 81.

[84] عبد الهادي التازي، مرجع سابق، ص 24.

[85] عزيز سامح التر، مرجع سابق، ص 191.

[86] عزيز سامح التر، مرجع سابق، ص 191.

[87]دييقو دي طوريس، مصدر سابق، ص 208

[88]دييقو دي طوريس، مصدر نفسه، 209.

[89] محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، ضمن مجموعة موسوعة أعلام المغرب، تحقيق: محمد حجي، أحمد التوفيق، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996، ج2، ص 892.

[90] عبد الكريم كريم، مرجع سابق، ص 82.

[91] محمد علي داهش، مرجع سابق، ص 37.

[92] دييقو دي طوريس ، مصدر سابق، ص 218.

[93] عزيز سامح التر، مرجع سابق، ص 193.

[94] إبراهيم حركات، مرجع سابق، مج2، ص 281، عبد الكريم فيلالي، مرجع سابق، ج3، ص 175.

[95] عمار بن خروف، مرجع سابق، ج1، ص 154.

[96] عمار بن خروف، مرجع سابق، ج1، ص 154.

[97] أحمد بن خالد الناصري، مرجع سابق، ج5، ص32.

[98] المرجع نفسه، ج5، ص33.